أسلوب تربية المماليك حتى تخرجهم وعناية السلاطين بهم

إعداد

مها عبدالله أبو المكارم عبدالله

ملخص البحث:

تناولت الدراسة أسلوب تربية المماليك فقد سردنا في هذا البحث بداية من شراء المملوك صغيرا حتى تخرجه وتوليهم المراتب المختلفة وذلك بعد أن يمروا بثلاثة مراحل منذ شرائهم ثم تربيتهم والعناية بهم جيدا دينيا وصحيا وعلميا ثم يتم تدريبهم على المهارات الحربية والعسكرية حتى يصبحوا سندا وعونا وحصونا تحمي مملكتهم .

Summary

The Study dealt with the method of upbringing the Mamluks. We have narrated in this research the beginning of buying a young Mamluk until he graduates and takes over the different ranks,after they go through three stages since their purchase, then they are raised and cared for well religiousl, healthly and scientifically, then they are trained in war and military skills until they pour support and our fortresses protect their kingdom .

ترجع أصول دولة المماليك الجراكسة إلي عهد السلطان قلاوون ٦٧٨ه /١٢٧٩م ،إلي ٦٨٩ه/١٢٩٠م ،عندما قام بعمل عنصر او فرقة جديدة من عناصر المماليك فقد أصبح الأغلبية من العنصر الجركسي ،لرخص ثمنهم وأعدادهم كانت كثيرة جدا في السوق ، وقام السلطان قلاوون بشراء أعداد كبيرة منهم لرخص ثمنهم ووضعهم في أبراج القلعوواستقروا هناك، وأعتمد عليهم كالحصون، وبعد ذلك عندما تولي الحكم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون صار علي نهج أبيه وأعتمد علي هذا العنصر واشتري منهم ألفان مملوكا، وكان قد سمح لهم بالنزول في النهار من أبراجعم فأصبحوا منغمسين وسط العامة ، بعد أن كانوا منعزلين عن عامة الشعب في أبراجهم [١]، وكان المماليك أصلهم في اللغة هم العبيد أو الرقيق ،لأنهم سبوا وكلمة مملوك هي جمع مماليك ومعناها العبد الذي يباع أو يشتري ولفظ مملوك أعتبر لفظا خاصا في التاريخ الإسلامي منذ أيام عصر الخليفة الإسلامي العباسي المأمون، وأخيه الخليفة المعتصم في مدة هذين الخليفتين قد جاءوا بأعداد ضخمه[٢] من المماليك أو الرقيق البيض ،فقاموا بشرائهم من الأسواق وأستخدموهم كقوي حربية ،لتدعيم نفوذهم ثم بعد مرور الوقت أصبح الرقيق البيض هم الأساس كقوي عسكرية كبيرة ومنذ عهد الأيوبيين كانوا يعتمدون علي المماليك كقوي عسكرية [٣]

وأما المماليك البرجية فهم يعتبروا الدولة الثانية وهي الدولة الجركسية عندما فرض الأتابك برقوق الشركسي نفسه سلطانا بعد خلع آخر سلطان من بني قلاوون ،بعدما قام بالإتفاق مع القضاة وشيخ الإسلام والخليفة عام ٧٨٤ه/١٣٨٢م.

وأصول هذه الدولة من الملوك الجنس الجركسي يعيشون في الكرج شمالي أرمينية بين البحر الأسود وبحر الخزر،وهذه المنطقة حاليا تعرف بجمهورية جورجيا بمنطقة القوقاز .

---

(١) العيني عقد الجمان ،ج٢٣ ص١٦٥

(٢)العيني عقد الجمان ،ج٢٣ ص١٦٥

(٣) محمد سهيل طافوش :تاريخ المماليك في مصر والشام

وفي القرن السابع الهجري كان المماليك كثيرون جدا في الأسواق بسبب كثرة السبي منهم وكان ذلك بسبب هجمات المغول مما أدي ذلك الهجوم لبخس سعرهم وكثرة أعدادهم ،وكانوا أيضا يعرفون بقوة البدن وجمال الشكل وشجاعتهم ، وبلغ عدد المماليك الجراكسة وقتهم ما يقارب من ٣٧٠٠ مملوكا ،وقد قاموا بوضعهم في برج القلعة وقد أستمرت دولة المماليك ل مائة وتسعة وثلاثون عاما [١]

ومن أهم ما اختلف به أو تميز به المماليك الجراكسة هي أنها قامت علي نظم تخالف ما تأسست عليه المماليك البحرية تماما ،فقد تميزت بعدة أشياء منها أن سلاطين الجراكسة كانوا كلهم من أصل جركسي إلا ملكين كانت أصولهم من اليونان وهم خشقدم وتمربغا ، وهذا يدل علي أن حكام الدولة الجركسية كانوا عنصريين أو قبليين كثيرا وأيضا قاموا بجعل العرش المملوكي مشاعا بين القادرين من المماليك رغم أن مبدأ الوراثة قد انتشر نوعا ما خصوصا فترة المماليك البحرية إلا أنهم لم يأخذوا بهذا النظام، فلا نجد أثرا لنظام التوريث إلا قليلا جدا ،

فكان اذا مات السلطان يتولي ابنه حتي يستطيع اثبات قوته وشخصيته وتقوم النزاعات علي العرش بعد ذلك [٢] .

<u>نظام التربية والتدريب للمماليك</u>:

كانوا لا يتعاملون مع المماليك كعبيد ،فمثلا الصالح أيوب ومن بعده أو من معهم من الأمراء كانوا يتعاملون معهم كمعاملتهم لأبنائهم تماما ،ولم تكن العلاقة بينهم علاقة عبد بسيده بل كانت علاقة الأستاذ بطلابه ،أو الأب وأبنائه، وهي علاقة معتمدة كثيرا علي الحب والتقدير والعناية بهم كبديل لعائلاتهم ولكي يزداد الإنتماء إليهم من قبل المملوك بسيده ،وكان الذي يشتري المملوك يدعي أستاذ وليس سيد[٣] .

---

(١) أطلس تاريخ العصر المملوكي ص١٦٩ لسهيل طافوش

(٢) سهيل طافوش :تاريخ المماليك ص٣٥١

(٣) قصة التتار من البداية عين جالوت ص٢١٤

وكان المملوك بعد شرائه يمر بثلاث مراحل :

المرحلة الأولي :وهي من السن الصغير منذ شراء المملوك حتي يصبح في سن البلوغ ،فقد كان المملوك يشتري صغيرا ثم يقوموا بعد ذلك بتوزيهم علي الالقلعة تنفيذا لأمر السلطان ،ويكون تحت إشراف جهاز إداري بالدولة المملوكية ،يتولي شؤون المملوك في التعليم والتربية والشؤون العسكرية ،وهذا الجهاز المسئول عنهمكان من المختصين بالجيش ،والدين الإسلامي ، وكان ما يبدأ به المملوك في التعليم هو القرآن الكريم في المرحلة الأولي من نشأتهم ، وكل مجموعة شيخ أو فقيه في الدين يأتي كل يوم إليهم ويعلمهم القرآن الكريم والآداب الشرعية ووالخط، ويحثوهم علي ملازمة الصلاة والذكر(١) .

وكان أساسيا الأهتمام بالرياضة والتمارين لتقوية أبدانهم ،ويراقبونهم أيضا لآداء الصلاة في أوقاتها ،ويحفظون الكثير من الأدعية حتي يقولون منها في في المناسبات المختلفة ،وكانت أساسيات هذه المرحلة تعليمهم الدين وأصوله والتمسك بتعاليمه، كي يتحلوا بالأخلاق الكريمة، والفقهاء والعلماء الذين قاموا بمتابعتهم والإشراف عليهم كانوا يمشون علي منهج الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام في تعاليمهم الدينية ،وتربيتهم علي معاني العقيد الصحيحة والتصور الصحيح للأمور.

ومن الجوانب التي قاموا بالتركيز عليها فقهاء الدين والجوانب التي اهتموا بها هي : إن الله منزه عن النقائص وهو كامل وسبحانه لا شريك له له الملك وحده ولم يتخذ ولدا ،وأن الله سبحانه وتعالي هو الذي خلق كل شئ وهو الذي يملك كل شئ ،وأن الله تعالي هو مصدر شئ والنعم هو أساسها التي في الكون كله (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم وقال تعالي "وما بكم من نعمة فمن الله " سورة النحل آية:٥٣

---

(١)المصدر نفسه ص٤٠، أطلس تاريخ العصر المملوكي ص١٣

(٢)الخطط :المقريزي ج٣ص٣٤٦

وأنه لا تخفي عن الله خافية فهو يعلم كل شئ ،وأن الله تعالي ينصر ويعز من يلجأ إليه ،وقد غرزوا فيهم أيضا أن نعيم الدنيا لن يدوم ولكن النعيم الأكبر في الجنة والنجاة من هول القيامة والنار هو هو الإيمان بالله تعالي وأن يعملوا صالحا ،

وإن الفقهاء وعلماء الدين المسئولون عن تربية ونشأة المماليك حرصوا علي الإعداد الرباني وكانت أسسهم تعليم الكتاب والسنة وأن يتلوا القرآن ووإعدادهم لكي يتحملوا صعوبة الجهاد والحروب والدفاع عن الإسلام والدين ،وتربيتهم أيضا علي الإخلاص والصبر وكثرة الدعاء والثبات ،ولذلك قد أصبحت مكانة العلماء والفقهاء كبيرة جدا عند المماليك لفضلهم وتعاليمهم التي غرزوها فيهم منذ صغرهم [١]

وهذه كانت من أسباب النهضة العلمية والثقافية في عصر المماليك وإحترامهم وتقديرهم لرجال الدين والفقه ،وذلك ما ميز عهد المماليك ككل وليس المماليك الجراكسة فقط.

ثم بعد ذلك سنذكر ما بعد سن البلوغ للمملوك وهي المرحلة الثانية .

المرحلة الثانية :

ويبدأفي تعليم المملوك فن القتال بعد أن يكون قد وصل لسن البلوغ فيتعلم فنون الحرب مثل الرمي بالسيف ،وورمي السهام ولعب الرمح وأيضا قيادة الخيول والضرب بالسيوف ، وكان إذا ظهر علي أحد من المملوك شذوذ في أخلاقة أو تهاون في تعاليمه الدينية كان يعاقبونه أشد العقاب ، وبعد ذلك يقومون بتقسيمهم إلي مجموعات يكون مسئول عنهم معلم في علوم الرياضة والتربية العسكرية وتدريباتها ،وأيضا يقومون بتدريبهم علي الرياضات المختلفة مثل العوم لمسافات بعيدة والمبارزة والسيف ،أما في أوقات الفراغ فكانوا يدعوهم لممارسة هواياتهم العملية أو العلمية أو الأدبية .

(١) كتاب أباطيل يجب أن تمحي من التاريخ ،ص٣٤٠

المرحلة الثالثة :

وهي مرحلة ظهور الاتجاهات والمواهب الحربية والكفايات السياسية، وبهذه المرحلة تعد المبارزات بين المملوك وغيره من الأشياء التي توضح مهاراتهم العسكرية وتميزهم ، ثم بعد ذلك يقومون بإرسالهم للمعارك الحربية ليتعلموا القتال الحقيقي ([1])

أما الأكل والثياب:

كانوا يهتمون بإطعامهم الأكل الصحي من الخضروات والفاكهة واللحم ،وكانوا لهم نظاما دقيقا فلا يخرجون من مقراتهم ليلا وعليهم الذهاب للحمام يوما في الأسبوع ، ولهم كسوة فاخرة ،وربما يعطوهم مرتبات قليلة تقريبا عشرة دنانير في الشهر([2]) ومنذ عهد السلطان برقوق سمح لهم بالخروج خارج القلعة والسفر للقاهرة ،أما عن نظام تخرجهم كان نظام تعليمهم في الطباق تقريبا أربعة أو خمسة عشر شهرا، فإن إنتهت الدراسة قاموا بعتق المملوك ويقومون بعمل احتفال مخصوص لعتقهم بالجملة ،فبعد ذلك يسلم المملوك سلاحا وسيفا وزي خاص وفرسا ويسمي عتيق أو معتوقا([3]).

ومعتقه يسمي أستاذه أما الذين يحررون من المماليك نفسهم يسطلق عليهم إسم خشداشية([4])

ومفردها خشداش أي زميله في الخدمة ،وقد كان المماليك يقسمونهم إلي أقساما ،فكان لكل جماعة من المماليك منهم باش أو نقيب،أما هناك منهم من يصل إلي الإمارة وهذه المرتبة تهئ للوظائف الكبري التي تحكم في الجيش أو السلطنة أو البلاط ،وقد كان هناك نظاما أن لا يحصل المملوك علي الإمارة إلا بعد أن يترقي من رتبة إلي

(١)ابراهيم شعوط :مصر في عهد بناة القاهرة ص١٦٩

(٢)المقريزي:الخطط ج٢ص٢١٣ ،سمير فراج :دولة المماليك ص٣٢

(٣) المصدر نفسه ص٣٢

(٤)أي زميل الخدمة

رتبة ،فلا يليها إلا بعد أن تتهذب أخلاقه وتكثر آدابه ويمتزج بروح الإسلام أيضا ،ومن الشروط أيضا أن يبرع المملوك في الشئون الحربية ،فقد كان من المماليك من يصل إلي فقيه أو أديب أو حاسب من شدة وكثرة علمه ،لذلك كان منهم المجاهدون في سبيل الله وأهل السياسة (١).

لغة المماليك :

ولغتهم هي اللغة التركية ،وهي مزيج من اللغة العربية واللغة الفارسية أيضا ،حتي لو لم يكونوا تركا، فقد كان هناك الكثير من سلاطين المماليك وأمرائهم يصلون إلي السلطنة ووظائف كبري ،ولم يكونوا علي معرفة أساسا باللغة العربية ،ورغم ذلك كان أغلب المماليك يتقنوا اللغة العربية الفصحي وكانوا فصحاء اللسان ،ومنهم من أصبح فقيها في الدين واللغة (٢).

وكان علاقة المماليك بأساتذتهم علاقة قوية جدا ،بين المملوك وأستاذه الذي أشتراه،والذي أشرف علي تدريبه وتربيته ،وكان أستاذهم يهتم جدا بمماليكه فقد كان الأستاذ يأكل طعامه مع مماليكه ،وكان حريصا أيضا علي الجلوس معهم فترات طويلة لكي يضمن ولاءهم ويقوي أواصر العلاقة بينهم ،حتي وصل إهتمامهم بالمملوك أن كان الملك المنصور قلاوون يخرج إلي الرحبة عند حضور الطعام ويقومون بعرض الطعام عليه ويختبر جودة أو رداءة الطعام بنفسه ،فقد كان يعترض علي هذا مع المشرف علي طعامهم إذا ثبت في طعامهم عيبا ،ونهرهما المشرف والأستادار (٣) .

(١) إيناس حسني :دولة المماليك البداية والنهاية ص٤٧

(٢) المرجع نفسه ص٤٧

(٣) قاسم عبده:السلطان الظفر سيف الدين قطز ص٤٧

وكان الملك المنصور قلاوون يقول :كان الملوك يعملوا شيئا يذكرون به ما بين عقار ومال ،وأنا عمرت أسوارا ،وعملت حصونا مانعة لي ولأولادي وهما المماليك ،وقد كان المماليك يقيمون في هذه الطباق . ([1])

فقد وضح لنا هذا النص عن أهم أركان المؤسسة المملوكية والعلاقات داخلها ،فيوضح هنا دراية السلطان بأهمية المماليك لأنهم مسئولون عن حماية عرشه ومملكته وأسرته أيضا ،وكان يصف المماليك بأنهم كالحصون والأسوار التي تحمي مملكته .([2])

وكما ذكرنا من قبل فقد كان الملوك وأصحاب السلطنة لا يتعاملون مع المماليك كعبيد وإنما كانوا يعاملونهممعاملة الأب لأبناءه وتربطهم رابطة المعلم بطلابه ،ولا يقهرونهم أو يعذبونهم بل بالعكس كانوا يعلمونهم أرقي تعليم في الدين والعلوم المختلفة ، وكان أول ما يهتم به الملك في تعليم المملوك هو تعليمهم القراءة والكتابة وأصول الدين لينشأوا نشأة دينية ، لذلك ظهر في المماليك الكثير من الفقهاء وعلماء الدين وعلماء الإسلام فمنهم العز بن عبد السلام والنووي وابن تيمية وابن قيم الجوزية وأيضا ابن حجر العسقلاني وابن كثير،والمقريزي وابن جماعة وابن قدامة المقدسي رحمهم الله جميعا([3]) وغيرهم الكثيرين يصعب عدهم أو حصرهم .

ومن أسباب براعة المماليك في الحروب والقتال أن من قوانينهم في السلطنة إذا وصل المملوك إلي سن البلوغ جاء معلموا الفروسية ومدربوا القتال فيعلمونهم فنون القتال والحرب والمبارزة ،وأيضا يقومون بتدريبهم علي حمل السيف وركوب الخيل والرمي بالسهام ،حتي يصلوا إلي مستوي عالية من القوة البدنية والمهارات الحربية ،وليس ذلك فقط بل يدربونهم بعد ذلك علي أمور القيادة والإدارة لوضع الخطط الحربية ،ويصبحوا قادرين علي حل المشكلات العسكرية ويتصرفون في الأمور

---

(١)الطباق:هي الثكنات العسكرية

(٢)المقريزي:الخطط ج٢ص٢١٣ ،السلطان المظفر ص٤٧

(٣)أطلس تاريخ العصر المملوكي ص١٣

الصعبة لذلك يصبح المملوك متفوق جدا في المجال الإداري والعسكري،إضافة إلي النشأة الدينية السليمة والتفقه في الدين ([1]) .

ونذكر أيضا أن بعد نشأتهم الدينية والحربية أصبحوا قوة لا يستهان بها فقد كثر عددهم وأصبحوا سندا عسكريا لأي سلطان يستعين بهم ففي عهد الدولة الطولونية اتخذ حكام هذه الدولة جنودها من المماليك ،وفي عهد الأيوبيين كان عدد المماليك قد زاد بسبب شراء الأيوبيين للمماليك بأعداد كبيرة جدا ،وقاموا بتدريبهم ليكونوا عونا لهم في الحروب وأعمال المملكة ، ففي القرن السادس والسابع الهجري ازداد نفوذ المماليك في البلاد في شتي الدول الإسلامية في الشرق الأدني ومن ضمنها مصر ، وكان معظم جيش أسد الدين شيريكوه من المماليك أيضا .

وبعد وفاة أسد الدين شيريكوه سار علي نفس خطاه أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي قام بتكوين جيشه من المماليك وسماه الصلاحية ([2])

وقد سكن المماليك جزيرة الروضة وهي إحدي ثلاث في نهر النيل وذلك حتي يكون المماليك بعيدا عن المدينة وسمي هؤلاء بالمماليك البحرية ، وأما اللآخرون الذين جلبوا بعدهم أطلق عليهم المماليك البرجية نسبة للأبراج التي كانوا يسكنون بها في القلعة ، ومعظم هؤلاء كانوا من العنصر الجركسي ومنهم كانت أسرة المماليك الثانية وقد أثري الأمراء باستخدامهم في إمتصاص دماء الأهالي وأنتفعوا من وظيفتهم بالإستيلاء علي إقطاعات وأراضي من الحكومة والواقع أن المماليك أصبح لهم مكانة كبيرة وسلطة ونفوذ وقاموا بالثورات والفتن عندما أصبح نفوذهم قوي وسلطتهم أيضا لا يستهان بها . ([3])

---

(١)المرجع نفسه ص١٣

(٢)أطلس تاريخ العصر المملوكي :ص١٦

(٣) السير وليم :دولة المماليك في مصر ص٤٠

المصادر والمراجع

١_ القرآن الكريم
٢_ العيني :بدر الدين محمود ،عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ،تحقيق د محمود رزق محمود ،دار الكتب والوثائق القومية ،القاهرة .
٣_ محمد سهيل طافوش :تاريخ المماليك في مصر والشام
٤_ راغب السرجاني :قصة التتار من البداية إلي عين جالوت ،الطبعة الأولي ،مؤسسة إقرأ للتوزيع القاهرة
٥_ المقريزي:تقي الدين أحمد بن علي ،االمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ،الطبعة الأولي دار الكتب الوطنية
٦_ شمس الدين أبو عبدالله الذهبي :أباطيل يجب أن تمحي من التاريخ
٧_ابراهيم شعوط:مصر في عصر بناة القاهرة
٨_ إيناس حسني البهجي:دولة المماليك البداية والنهاية ، كلية الآداب جامعة الخرطوم،دار الكتب المصرية
٩_ قاسم عبده قاسم:السلطان المظفر سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت ،دار القلم دمشق
١٠_ سامي بن عبدالله بن أحمد المغلوث :أطلس تاريخ العصر المملوكي ،الطبعة الأولي
١١_ السير وليم موير :تاريخ دولة المماليك في مصر ،ترجمة غبود كاسوحة